التصوير عند العرب

كتاب المرحوم أحمد تيمور باشا

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كان أحمد باشا تيمور ، أمّة فى النبل والعلم والأخلاق ؛ وركناً من أركان العربية فى الشرق ؛ وكان نقّابة بحّاثة متتبعاً . ما طرق موضوعاً إلا محّص وحقّق وجلّى ، وما ألّف إلا جمع وأطرف واستقصى . ثم مضى ، يرحمه الله ، وخلّف ما يدل على سعة اطلاع ، وغزارة علم وَفِرَة مطالعة . وما خزانته النادرة إلا دليل فضله وآية فُرارته وعلمه

كان ، رحمه الله ، إذا ألّف أتى بما يعجز الكثيرون من المتتبعين والمحققين والجماعين عن إدراكه وجمعه . ولقد ترك لنا كثيراً من التواليف النوادر الحسان ، منها كتاب « التصوير عند العرب » هذا . ولقد عنيت فى الأيام الخوالى بهذا الموضوع ، فلم أعرف أحداً بلغ فيه ، من دقة الاستقصاء ، وجودة الانتقاء ، وندرة المنتخب ، وحسن التبويب والترتيب ، ما بلغه العلامة المؤلف . فقد جعله على خمسة عشر باباً ؛ فساق ما جمعه عن التصوير على الثياب والستور ، والأقداح والأوانى ، والمصابيح والسلاح ، والنقود ، والشارات والبنود ، والكتب والصحف والألواح . ثم بحث فى التماثيل ، منذ أيام الجاهلية إلى عصور المتأخرين الثابتة منها والمتحركة ، الصامتة والمصوّتة ، وتماثيل الصبيان ، وتماثيل الزهر ، والحلوى ؛ وختم الكتاب بفصل نادر ذى شأن عن المصورين العرب

وقد خص الدكتور زكى محمد حسن هذا الكتاب الثمين بعنايته ، فرد نصوص الكتاب إلى أصولها وصفحاتها ، وألحق به تعليقات وشروحاً وتفصيلات بلغ فى بعضها الذروة من حيث التحقيق والتمحيص وجمال البحث ، ككلامه على التصوير عند المسلمين

وقد بدت لى ، أثناء مطالعتى هذا الكتاب ، ملاحظات من مآخذ وإضافات أردت نشرها تباعاً فى هذه المجلة الغراء

١ — ساق المؤلف خبر بساط أم المستعين الذى صُوّرت عليه صورة كل حيوان ص ٢٩ ؛ فقال الأستاذ زكى محمد حسن فى التعليقة ذات الرقم (١٣٦) : لم نقف على المرجع الذى أُخذ هذا الخبر منه . وقد وجدنا نحن هذا الخبر فى كتب شتى ؛ كعيون التواريخ (مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق) وكالمستطرف فى كل فن مستظرف . فقد جاء فى المستطرف ، وهو لا يختلف عما ذكره ابن شاكر فى عيون التواريخ ما يلى : « قال أحمد بن حمدون النديم : عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينها ياقوتٌ وجواهر »

ويُستدل من تتمة الخبر أن بعض هذه الصور كان تماثيل ، وربما كانت كلها تماثيل . . . فقد جاء بعد ذلك « . . . وأنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليه ، وينظر إليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته . قال ابن حمدون : فقال (يعنى المستعين) لى ولأترجة الهاشمى إذهبا فانظرا إليه . وكان معنا الحاجب ، فمضينا ورأيناه ؛ فوالله ما رأينا فى الدنيا شيئاً أحسن منه ، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل . فمددت يدى إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان ، فوضعته فى كمى . ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأينا . فقال أترجة الهاشمي يا أمير المؤمنين إنه قد سَرَق منه شيئاً ، وغمز على كمى . فأريته الغزال . فقال بحياتى عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما . فمضينا ، فلأنا أكمامنا وأقبيتنا ، وأقبلنا نمشى كالجبالى فلما رآنا ضحك ضحكاً وسُر سروراً عظيماً ... »[1]

(١) انظر المستطرف (ج ١ ص ١٥٠)

٢ — نقل المؤلف عن النويرى وصف قصر المتوكل « البرج » فقال :

« وكان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة غشى ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة وجعل عليها شجرة من ذهب فيها طيور تصفر سمّاها طوبى ... »

قلت : وفى كتاب الديارات للشابشتى الذى فرغت من تحقيقه تتمة للوصف لهـا علاقة بالبحث . قال الشابشتى : « وعُمل له سرير من الذهب كبير ، عليه صورتا سبعين عظيمين ، ودرج عليها صور السباع والنسور وغير ذلك مما يوصف به سرير سليمان ابن داود عليه السلام . وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب »[1]

أضف إلى ما ذكره المؤلف فى باب التصوير على الجدران ما يلى :

« وقد وُجد على جدران قصر الحير الغربى (وهو القصر الذى كان لهشام بن عبد الملك ، وا كتشف أخيراً فى بادية الشام بين تدمر والقريتين ، ونقل إلى دمشق ، وأعيد تركيب أجزائه) أقول : وجدوا على جدرانه وأرضه كثيراً من الصور والزخارف الملونة ؛ من أعظمها ما عُثر عليه داخل غرفتين فيه ، رُصِّفت أرضهما بالجصّ المصوَّر . تمثل الأولى سماوة امرأة تحمل بين ذراعيها سلّة فيها ثمار ، وقد التف حول عنقها ثعبان ، وفوقها صورة (قنطورسين) بهيئة رَجُلين نصفهما الأسفل ثعبان له مخالب سبع . ورسم فى أرض الغرفة الثانية مرزبان على جواده يطارد غزلاناً يرميها بالسهام . وصورة قينتين ، الأولى تنفخ بمزمار ، والثانية تضرب بمرهب الخشب على عود ذى خمسة أوتار . وحجم هـذه الصورة يعادل حجم الإنسان ويزيد عنه فى بعضها ، وهى متقنة الصنع ، زاهية الألوان ، ساذجة الخطوط طبيعية الحركات »[1]

٤ — أضف إلى ما ورد فى باب التماثيل ما يلى :

« ومما وُجد على قصر الحير المنوه به فى الفقرة السابقة ، تمثال امرأتين كانتا فى مدخل القصر إحداهما جالسة ، والثانية مستلقية على ظهرها تشبه صنعتهما التماثيل التدمرية المعروفة . وكأنهما نقلتا عن صورة الجاريتين اللتين مر بهما أوس بن ثعلبة فاستحسنهما وأنشد فيهما :

فتـاتى أهلُ تدمر خبِّرانى ألمّا تسأما طول المقام
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصمّ من الرُّخام[2]

٥ — أضف إلى الباب نفسه (التماثيل) ما ذكره البيرونى فى الجماهر (طبع كرنكو حيدر آباد الدكن) (« أن زبيدة اشترت لعبد الله بن المخلوع قضيباً من زمرد قدر ذراع بأربعة وثمانين ألف دينار ، ليلعب به يوم إعذاره . وكان على رأسه طائر من ياقوت أحمر وعيناه من الجوهر »[3]

٦ — ذكر المؤلف نقلاً عن طبقات الشافعية للسبكى ص٨٦ أن أبا على الروذبارى اشترى أحمالاً من السكر ، فصُنع له منه جدار عليه شرفات »

قلت : وفى ربيع الأبرار للزمخشري خلاف هذا ، قال : « اشترى رجل أحمالاً من السكر ، وأمر باتخاذ مسجد من السكر

---

(١) انظر « الديارات » للشابشتى — دير السوسى . مخطوطة المجمع العلمى العربى الفوتوغرافية . وانظر أيضاً : « عيون التواريخ لابن شاكر » فقد سبق صاحبه هذا الخبر على نحو مما ذكرت ١٩٠١٣

(١) انظر مقالا ذا شأن عن قصر الحير الغربى هذا ، للأمير جعفر الحسنى مدير دار الآثار السورية ، فى المجمع العلمى العربى — المجلد الثالث عشر ، الجزء الثامن ، آب سنة ١٩٤١ ص ٣٤٠

(٢) انظر مقالة الأمير جعفر الحسنى المذكورة فى الفقرة السابقة وارجع إن شئت تفصيلاً إلى :

Sulumberger. Les fouilles de Qaçr el Heir el Gharbi. Syria T. xx P. 195

(٣) انظر مقالنا عن جواهر الخلفاء العباسيين فى مجلة المجمع العلمى . المجلد السادس عشر ، الجزء الثانى عشر ، سنة ١٩٤١ ص ٥٠٨

ذى شُرَف ومحاريب وأعمدة منقوشة . ثم دعا الفقراء فهدموه ونهبوه »[1]

٧ — وثمة خبر آخر عثرت عليه يدخل في هذا الباب . قال صاحب ذيل زهر الآداب عند كلامه على وليمة العباس بن الحسين ابن . . . لأحمد بن بويه « واصطنع فى البستان الأعظم على البركة التى يجتمع بفنائها دجلة والفرات ، قصراً مبنياً من السكر على أربع طبقات ، بأبواب تدور به ، وأبواب تغلق عليها ، من فوقها طبقة فطبقة ، تطلع من تلك الأبواب صور من السكر على هيئة الجوارى والغلمان ، بصنوف الملاهى ، فى أحسن الملابس والحلل ؛ وجعل على شرفاتها وطبقاتها وحناياها صور أنواع الطير والحيوان والوحش . وجعل من ورائها رجالاً تنفخ بالبوقات والمزامير ، كل صنف يخرج منه صوت يليق بصورته ، وكل ذلك من السكر المموه بصنوف الأصباغ والنقوش والذهب »[2]

٨ — أضف إلى باب التماثيل ، ما ذكره التنوخى فى نشوار المحاضرة ، وهو يدل على أنهم كانوا يصنعون تماثيل على هيئة الفاكهة . قال من قصة طويلة يصعب تلخيصها « . . . وأُدخلنا إلى فازة لطيفة من ديباج (وهى مظلّة كبيرة تمد بعمود على قول الجوهرى ، أو بعمودين على قول الفيروزابادى) ؛ وفيها صندل محلاة بفضة ؛ فيها دُسُت ديباج وحُصُر طبرية . ونحو ثلاثين طاولة مسبكة بالذهب كلها ، عليها تماثيل العنبر على هيئة الأترج والبطيخ والدستبو . . . »[3]

٩ — أضف إلى ماذكره المؤلف الفاضل عن تماثيل الأندلس ص ٧٠ ما قاله ابن حديس أيضاً فى تماثيل أسود على أبواب دار بناها المنصور بن أبى عامر :

وإذا الولائد فتّحت أبوابه جعلت ترحّب بالعفاة صريرا
عضّت على حلقاتهن ضراغم فغرت بهـا أفواهها تكبيرا

فهو يصف حلقات الأبواب ، وكانت مصنوعة بحيث تعض عليها تماثيل أسود فاتحة أفواهها كأنها تكبر الله[1]

١٠ — أضف إلى باب التصوير على الجدران ... ما يروونه عن أعمدة جامع قرطبة . قال المقرى صاحب النفح عند كلامه على جامع قرطبة نقلاً عن صاحب نشق الأزهار : « وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى ، وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح عليه السلام » وإن كان المقرى يشك فى ذلك

* * *

هذا ما رأيت إضافته إلى ما ساقه العلامة المرحوم تيمور باشا أما ما أخذته على الدكتور محمد حسن فى تعليقاته فسيأتى

(دمشق) صبوح الدين المؤيد

(١) انظر ربيع الأبرار للزمخشرى ، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وانظر أيضاً مطالع البدور ج ٢ ص ٨٠

(٢) انظر جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى . طبعة الخانجى ص ٢٧٦

(٣) أنظر نشوار المحاضرة — الجزء الثامن — مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٣٠

(١) انظر نفح الطيب ، الجزء الرابع ص ١٨٤ طبعة الرفاعى
انظر الأبيات التى قالها أيضاً فى صور دار بناها المعتمد على الله — المصدر السابق
انظر مقاله الوزير الجزيرى فى وصف مجلس للمنصور ابن أبى عامر (بركة وأسود) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦
(انظر أبيات أمية بن عبد العزيز الأندلسى ، فى وصف قصر يسمى منزل العز فيه تماثيل فرسان ووحوش وطير جو ... النفح ج ٤ ص ١٩٨

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى فى مجلد واحد ٧٠ قرشاً ، و ٧٠ قرشاً عن كل سنة من السنوات : الثانية والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد .